محاضرة 4: نشأة الأنثروبولوجيا

تاريخ الأنثروبولوجيا يمتد لآلاف السنين كما أشرنا لذلك في المحاضرات السابقة لكن نشأة الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته تعود للعصر الحديث متأثَرة بتطوَر البحوث العلمية في مجالات مختلفة ومساهمة التجَار والغزاة في تطوير الاتصال بين مناطق مختلفة من العالم.

الأسس العلمية والمعرفية لعلم الأنثروبولوجيا:

كغيرها من العلوم تأسست الأنثروبولوجيا في أحضان التفكير والبحث العلمي الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر وتأثرت بالنظريات والمناهج العلمية التي فسَرت التاريخ البشري.

أثرت النزعة التطورية الداروينية في نمو أنثروبولوجيا أكاديمية، فقد دفعت نظرية داروين للتطوَر إلى تطوير المنهج العلمي للأنثروبولوجيا التي اهتمت بتحليل التطور الثقافي للمجتمعات البشرية، كما أثَرت فيها سوسيولوجية دوركايم وسيكولوجية فرويد وجدلية هيجل وماركس وغيرها من الأنماط التفكيرية السائدة في تلك الفترة.

كما كان لفكر أوغست كونت (1857/1798) دورا لا يستهان به في تطوير علم الإنسان، فهو الذي قام بوضع الأسس النظرية والمنهجية للأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وتتلخص في الملاحظة والتجربة والمنهج المقارن.

ويعتبر عام 1879 مهمَا بالنسبة لعلم الأنثروبولوجيا ففي هذا العام وصل إدوارد تايلور إلى منصب أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد، وفي 1899 أنشأ فرانس بواز أوَل قسم رئيسي لتدريس علم الإنسان بجامعة كولومبيا بنيويورك ومنذ ذلك الوقت نمت الأنثروبولوجيا كمجال أكاديمي يدرس في الجامعات حول العالم.

لكنَ الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته مرَ بمراحل أهمها:

1- مرحلة الدراسات الوصفية للرحَالة الأوربيين: اعتمدت الدراسات الأولى في الأنثروبولوجيا على الوصف والتحليل الذي قام به الرحالة المسافرون والمبشرون الدينيون، وكانت مصادر المعلومات بالنسبة لهم الصور والنقوش والقصص والأساطير والحكايات الشعبية التي استنبطوا منها نمط الإنجازات الحضارية القديمة، ومع بداية القرن السابع

عشر استخدم (ألفريد هادون) لأوَل مرَة مصطلح أنثروبولوجيا[1] في حديثه عن خصائص جسم الإنسان والمصطلح تعود جذوره للحضارة اليونانية القديمة فقد استخدمه الفيلسوف الإغريقي أرسطو (في وصف الشخص الذي يتكلَم عن نفسه)، وفي 1655 ظهر المصطلح من جديد في كتاب باللغة الانجليزية يبحث في الطبيعة البشرية بشقيها التشريحي والنفسي **ولربما كان هذا هو رابط مفهوم علم الأنثروبولوجيا قديما بأنَه يشير إلى ربط الروح مع الجسد ثم انتشر المصطلح متجاوزا هذا التفسير إلى الأصول الاجتماعية والحضارية والبيولوجية المكوَنة لسلوك الإنسان وعاداته وتقاليده** (guelma.yoo7.com)

ومع بداية القرن 18 اتجه علماء الأنثروبولوجيا لدراسة المجتمعات البدائية على اعتبار أنَ المجتمعات المعاصرة مرَت في نشأتها بمراحل تاريخية أولَها مرحلة البدائية، وقد تأثر هؤلاء الباحثون بكتابات الفيلسوف الفرنسي مونتيسكيو الذي ميَز في كتابه (روح القوانين) بين البنى الاجتماعية ونظام القيم.

2- مرحلة الدراسات الجيولوجية: مع بداية القرن التاسع عشر توجَه الباحثون في علم الأنثروبولوجيا نحو البحث في بقايا عظام الإنسان والأدوات التي كان يستعملها في حياته اليومية، ففي 1758 صنَف العالم (كارل لينو) في كتابه (نظام الطبيعة) الأجناس البشرية على ضوء الدراسات الجيولوجية والحفريات إلى أربع مجموعات: الأوربيون البيض، الآسيويون الصفر، الأمريكيون الحمر، الإفريقيون السود.

وفي 1830 عثر الفرنسي (يوشيه ديبرت) على أدوات حجرية في وادي سوم بأوروبا، وفي1865 تمَ اكتشاف أوَل هيكل عظمي لإنسان النياندرتال البدائي بالقرب من مدينة دوسلدورف الألمانية، وكانت هذه الاكتشافات دليلا على تواجد الإنسان بالقارة في العصر الجليدي الرابع، وقد فتحت هذه الاكتشافات الباب على مصراعيه لعلماء الأنثروبولوجيا للبحث في مجال الأنثروبولوجيا الطبيعية.

3- مرحلة دراسة الشعوب البدائية: تميَزت هذه الفترة بنظرة علماء الأنثروبولوجيا إلى تاريخ الثقافة الإنسانية على أنَه عملية تطوَر من الأشكال الدنيا إلى الأشكال العليا واهتمامهم بدراسة الشعوب البدائية وشبه البدائية التي كانت تعيش في بعض أماكن افريقيا وأستراليا واندونيسيا، وقد توصَلوا في بحوثهم إلى أنَ التقدَم البشري مرَ بمراحل فقد انتقل الإنسان من المرحلة الحيوانية إلى البدائية ثم البربرية ثم المدنية وافترضوا بأنَ مراحل تطور المجتمعات الإنسانية واحدة ومتشابهة ويمكن دراسة جذور المجتمعات المعاصرة من خلال دراسة المجتمعات البدائية.

---

[1] يذكر لنا عالم الأنثروبولوجيا البريطاني ألفريد هادون أنَ كلمة (أنثروبولوجيا) ظهرت لأوَل مرَة خلال القرن السابع عشر في عنوان كتاب مجهول المؤلف (لم يكر اسم مؤلفه)

وفي هذه الفترة ظهرت دراسات للأمريكي لويس مورغان (1877/1861) حول تطور العائلة وأنماط الزواج في العديد من المجتمعات وانتهى إلى أنَ الزواج من وجهة نظره تطوَر خلال القرون من زواج الجماعة إلى الزواج الغربي من زوجة واحدة.

4ـ مرحلة الحملات الاستعمارية: ارتبط الاستعمار الحديث بالحضارة الأوربية والثورة الصناعية التي رأت في الموارد الطبيعية والمعدنية (مصادر الطاقة والمواد الأولية) لدول إفريقيا وآسيا مصدرا مهمَا لتطَورها وهو ما فتح الباب أمام الاستعمار لاستغلال هذه الموارد، وقد استغل علماء الأنثروبولوجيا هذه المرحلة لدراسة النظم والبنى الاجتماعية للشعوب المستعمرة وأيضا طبيعتها الثقافية ممَا سهَل في احتلالها، وبهذا قدَمت الأنثروبولوجيا خدمات جليلة للحركة الاستعمارية وأصبحت أداة من أدواتها واعتبرت بذلك علما استعماريا وفي هذا المجال يقول الدكتور أحمد أوراغي في دراسته (الأنثروبولوجيا والاستعمار): **" تعارفت الدراسات المهتمة بتاريخ العلوم على اعتبار الأنثروبولوجيا علما استعماريا بحثا إذ انبثق هذا العلم أوَل ما انبثق في رغبة العالم المتحضَر (الغربي) في استكشاف الآخر البدائي (المتخلَف) أو الغريب عن الحضارة الغربية والذي يرزح تحت غياهب التوحش والبدائية"**(rassef22.Net)

لقد اعتمدت الدول الأوربية المستعمرة على علماء الأنثروبولوجيا في دراسة ديانات الشعوب وطباعهم النفسية والاجتماعية حتى يسهل عليها السيطرة عليهم، كما أسَست مراكز للبحوث والدراسات مختَصة في ثقافات الشعوب، ويمثل مشروع (عسكرة الأنثروبولوجيا) الذي اعتمده الجيش الامريكي في حرب العراق وأفغانستان أفضل مثال على توظيف الأنثروبولوجيا التطبيقية في مجال النزاعات والحروب ويشرح العقيد (ستيفن فونداكارو) أهداف هذا المشروع بالقول: **"إنَ مهمَة العلماء تقوم على تقديم فهم واضح للمشكلات التي يواجهها الجيش مع السكان المحليين حيث يتلقى الضباط هذه المعلومات ويقررون بموجبها طبيعة الإجراءات العسكرية التي عليهم اتخادها"**
(www.Aranthropos.com)

5ـ مرحلة الأنثروبولوجيا المعاصرة والتوجهات التنموية: تعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل تطوَر علم الأنثروبولوجيا فابتداء من منتصف القرن العشرين انطلقت الدراسات نحو النظم والبنى الاجتماعية الحالية دون البحث في أصولها التطورية أو انتشارها الحضاري، وبذلك ظهرت دراسات وبحوث حول مواضيع جديدة مثل دراسة الأحياء السكنية بالمدن الكبرى ودراسة عصابات الشوارع ودراسة الأوبئة وغيرها وبهذا حققت الأنثروبولوجيا خطوة مهمة نحو دراسة المشكلات ذات العلاقة بالتنمية والتحوَل المجتمعي

وساهمت في طرح طرق بديلة للخطابات التنموية السائدة من خلل رصد التغيَر الاجتماعي والتنبؤ بنتائجه.

يعتبر الإنسان أساس التنمية فهي لا تقوم إلاَ به ولأجله، وهي تطمح لتحقيق أكبر معدَلات استقرار اقتصادي واجتماعي في المجتمع مع الالتزام بحماية البيئة وعدم المساس بموارد الأجيال القادمة وبهذا فإنَ التنمية تستهدف مجال الثقافة وتعديل سلوك الأفراد وعلى هذا الأساس فإنَ الأنثروبولوجيا تقوم بتفسير الظواهر التي تعيق حركة التنمية بمتابعة الثقافة والسلوك.

What is the historical foundation of anthropology?

Many scholars argue that modern anthropology developed during the age of Enlightenment, a cultural movement of 18th century Europe that focused on the power of reason to advance society and knowledge. Enlightenment scholars aimed to understand human behaviour and society as phenomena that followed defined principles (education.nationalgeographic.org)

Anthropology emerged from the colonial expansion of Europe. Colonialism structured the relationship between anthropologists and the people they studied and had an effect on methodological and conceptual formulations in the discipline (Diane Lewis, Anthropology and colonialism, Current Anthropology, Volume14, Number 5, www.journals.uchicago.edu).